المكان بالمكين

في جلسةٍ أسبوعية لاحتساء الشاي المخدّر على الجمر، يجتمع الأحبة ويتبادلون أطراف الحديث، ويستذكرون ماضيهم الجميل. كانت تلك الجلسة تُقام في الحي القديم الذي ضمّهم جميعًا في طفولتهم، ثم ظلّ يجمعهم بعدما شبّ عظمهم، وشاب رأس بعضهم، وهم ما زالوا يقطنون فيه.

كان مكان الجلسة بسيطًا جدًا، لكن أحدهم أخذ على عاتقه فتحها وإدارتها منذ أكثر من عشرين عامًا، فأصبح عمود تلك الجلسة ومحورها؛ ببشاشة وجهه، ولطف حديثه، وإضفاء روح المرح بكلامه الجميل، واحترامه للجميع. تلك الصفات منحت الجلسة رقيًا رغم بساطتها، وأنست مرتاديها أي نقصٍ فيها أو سوء. حتى إن أحدًا لم يكن يقول : «أنا ذاهب إلى الديوانية» ، بل يقول : «أنا ذاهب إلى فلان» ، لأنه كان روح الجلسة، ونفسها، وجمالها.

وبعد فترة، ولظروفٍ خاصة، انقطع صاحب الجلسة عنها معتذرًا مدةً طويلة، فضجّ روادها من الفراغ الذي خلّفه غيابه، ثم أُغلقت الجلسة الأسبوعية بعد ذلك بمدة. وبعد حين، تبنّت مجموعةٌ من الأصدقاء إعادة الجلسة، لكن بعد إدخال تعديلات كثيرة عليها من جميع النواحي. فُتحت الجلسة من جديد، غير أن روحها كانت مفقودة؛ فرغم زخرفتها، بدا نبضها مطفأً، وكأن التغييرات لم تستطع إحياء ذلك الدفء القديم. وصدق من قال:

المكان بالمكين».

بعض الناس، بطبيعته وجمال روحه، يرسل رسائل إيجابية بتلقائيةٍ خالية من أي تكلّف أو رتوش، فتطمئن النفس للقائه، وتزول معها كدرة الحياة وهمومها. لذلك، ترى من يتمتع بهذه الروح الجميلة يخفي كثيرًا من جوانب النقص فيه؛ فقد تكون ملابسه بسيطة لكنها نظيفة، غير أن روحه تضفي عليها جمالًا خاصًا. ومثال آخر: قد ترى رجلًا تقدّم به العمر، لكنك حين تجلس معه يختفي أثر السنين، فتراه أصغر من عمره الحقيقي، وكأن شبابه ما زال حاضرًا فيه. وكما قال الشاعر: «عُمري إلى التسعين يركضُ مسرعًا والنفسُ واقفةٌ على العشرينِ» أما على النقيض من ذلك، فترى من يزيّن حديثه، وينفق على مظهره أموالًا كثيرة، لكنه يفتقد ما هو أجمل من كل ذلك: الروح المرحة، والابتسامة الصادقة، وإشعار الآخرين بالمحبة والتواضع.

أخيرًا، ليست الأماكن بما فيها، بل بالروح التي تحييها، وليست قيمة الأشخاص بما لبسوا، بل بما تحمله نفوسهم من أثر.

فبوجودهم تأنس النفوس، وبغيابهم تحنّ إليهم وعليهم.